المحور الثالث: محمد المويلحي وحديث عيسى بن هشام والمحاولات الأولى لكتابة الرواية في الأدب العربي

مقدمة:

شكّلت بدايات القرن العشرين لحظة فارقة في مسار الأدب العربي، حيث دخلت الثقافة العربية مرحلة انتقالية من التقليد إلى الحداثة، مدفوعة بالاحتكاك العميق بالغرب، وبالتحولات السياسية والاجتماعية التي شهدها العالم العربي، خصوصًا في مصر والشام/ وقد تمثلت إحدى أبرز ملامح هذا التحول في تراجع الأشكال الأدبية التقليدية—كالمقامة، والخطابة، والشعر العمودي—أمام صعود أشكال جديدة مستوردة، أبرزها فن الرواية، الذي جاء محمّلًا بروح التخييل، والتحليل النفسي، والنقد الاجتماعي.

ورغم أن كثيرًا من الدراسات تُرجّح أن رواية زينب لمحمد حسين هيكل (1914) هي أول رواية فنية ناضجة في الأدب العربي، فإن هذا التصنيف لا ينبغي أن يُغفل المحاولات التمهيدية السابقة، التي مهدت الطريق لهذا التحوّل، وكان من أبرزها كتاب "حديث عيسى بن هشام" للكاتب المصري محمد المويلحي. فهذا العمل، الذي نُشر أولًا على شكل مقالات مسلسلة في جريدة مصباح الشرق ثم جُمع في كتاب عام 1907، يُعدّ من أهم النماذج المبكرة للسرد العربي الحديث، حيث تداخلت فيه عناصر المقال الصحفي، والمقامة التراثية، والحوار الاجتماعي، ضمن بناء سردي هجين يقترب كثيرًا من بنية الرواية.

يمثّل "حديث عيسى بن هشام" مرآةً نقدية دقيقة لمجتمع ما بعد الاحتلال البريطاني في مصر، وينطوي على وعي اجتماعي وسياسي متقدم، عبّر عنه المويلحي بأسلوب فني جمع بين السخرية، والتحليل، والتخييل، ومن هنا، تتأتى أهمية هذا النص، لا فقط بوصفه وثيقة أدبية انتقالية، بل أيضًا كواحد من البدايات الجادة لتشكّل الرواية العربية الحديثة، حتى وإن لم تتوفر فيه جميع السمات الفنية للرواية كما استقرت لاحقًا.

أولًا: محمد المويلحي والسياق الثقافي

وُلد محمد المويلحي (1858–1930) في أسرة مصرية ذات مكانة دينية وسياسية مرموقة، فقد كان والده إبراهيم المويلحي أحد أبرز الكتّاب والمفكرين في عصره، ومقرّبًا من دوائر الإصلاح والتجديد، نشأ محمد في بيئة ثقافية غنية أتاحت له الاطلاع على التراث العربي والإسلامي، وفي الوقت ذاته الانفتاح على التيارات الفكرية الحديثة، تلقّى تعليمه في مصر ثم في تركيا، حيث تأثر بالأجواء الفكرية والسياسية السائدة في الدولة العثمانية خلال أواخر القرن التاسع عشر، وهي فترة كانت تشهد مخاضًا فكريًا كبيرًا في ظل ضعف الدولة العثمانية وتنامي النزعة القومية والإصلاحية.

ارتبط المويلحي ارتباطًا وثيقًا بأعلام الفكر الإصلاحي في عصره، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وهو ما وضعه في قلب الحركة التنويرية التي سعت إلى إعادة قراءة التراث، والنهوض بالعقل المسلم، ومواجهة الاستبداد السياسي والتقليد الديني، وقد انعكس هذا التوجه في كتاباته التي جمعت بين الحس النقدي والبعد الأخلاقي، وسعت إلى بناء وعي جديد يتجاوز الجمود ويواكب متغيرات العصر.

عمل المويلحي في الصحافة، وهو المجال الذي كان يُعد آنذاك منبرًا رئيسًا للتأثير الثقافي والفكري، كتب في عدة صحف ومجلات، من أبرزها جريدة "مصباح الشرق" التي أسسها والده، والتي تحوّلت إلى منصة لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية، وللتعبير عن أفكار الإصلاح، في هذه الجريدة نشر محمد المويلحي عمله الشهير "حديث عيسى بن هشام" على شكل سلسلة مقالات، قبل أن يجمعها لاحقًا في كتاب واحد.

جاء هذا العمل الأدبي في وقت كانت فيه مصر ترزح تحت نير الاحتلال البريطاني (منذ 1882)، وتشهد تحولات كبرى على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، فقد بدأت تظهر طبقات اجتماعية جديدة، وتغيرت أنماط الحياة في المدن، وبدأت أسئلة النهضة، والتقدم، والهوية، والدين، تحتل الصدارة في النقاش العام، وقد التقط المويلحي هذه التحولات بدقة، وصاغها في عمله بأسلوب يجمع بين السخرية والرمزية والحوار، مستعينًا بالشخصيات التقليدية (مثل عيسى بن هشام والباشا العائد من الموت) لطرح قضايا معاصرة بطريقة مبتكرة.

إن "حديث عيسى بن هشام" لا يمكن فهمه بمعزل عن سياقه الثقافي العام، إذ يعكس صراعًا بين القديم والجديد، بين التقاليد المتوارثة ومظاهر الحداثة الوافدة، بين التنوير والانغلاق، وقد وظف المويلحي التراث بأسلوب ساخر، لكنه أيضًا ناقد وعميق، ليعبّر عن أمله في يقظة عربية تقوم على العلم والأخلاق والحرية.

وهكذا، فإن محمد المويلحي كان ابن عصره بكل ما فيه من تحديات، واستطاع من خلال أدبه أن يعبّر عن نبض المجتمع، ويخوض معركة الوعي ضد الاحتلال والاستبداد والجهل، مسهمًا في تشكيل ملامح النهضة الفكرية الحديثة في العالم العربي.

ثانيًا: "حديث عيسى بن هشام": بين المقامة والرواية

ملخص "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي:

" حديث عيسى بن هشام" هو عمل أدبي يجمع بين السرد القصصي والمقامة التقليدية والنقد الاجتماعي، تدور أحداثه حول لقاء تخيّلي بين عيسى بن هشام، الراوي، والباشا، وهو شخصية رمزية لعصر قديم يعود إلى الحياة بعد موته، فيتفاجأ بالتحولات التي طرأت على مصر في أواخر القرن التاسع عشر.

ينطلق الاثنان في جولات عبر مجالات مختلفة من الحياة المصرية، مثل التعليم، القضاء، الجيش، المسرح، الأخلاق العامة، والإدارة، وخلال هذه الجولات، يلاحظ الباشا التغيرات الغريبة التي طرأت على البلاد، ويتحاور مع عيسى بن هشام حول أسباب التدهور أو مظاهر الحداثة، فيعرض المويلحي من خلالهما نقدًا ساخرًا وذكيًا لأحوال المجتمع المصري تحت الاحتلال البريطاني، وسط التخلف والفساد والانحراف عن مبادئ الإصلاح.

العمل مكتوب بأسلوب مقامي تقليدي يعتمد على السجع واللغة الفصيحة، لكنه يحتوي على عناصر سردية حديثة، مثل وحدة الشخصيات وتسلسل الأحداث، مما يجعله نصًا يجمع بين المقامة والرواية، وينتمي إلى أدب النهضة، الذي هدف إلى توعية القارئ وإثارة التفكير في قضايا الإصلاح والتجديد.

1. الشكل الفني للعمل:

من الناحية الشكلية، يقوم "حديث عيسى بن هشام" على أسس المقامة الكلاسيكية، وهو شكل أدبي تراثي عرف بخصائص لغوية وجمالية مميزة، مثل السجع، والتكثيف البلاغي، واللغة العالية، والحوار المسرحي، وقد تأثر محمد المويلحي بأسلوب بديع الزمان الهمذاني والحريري، لكنه لم يتوقف عند حدود المحاكاة، بل طوّع هذا القالب الفني ليتسع لمضامين حداثية تتعلق بأوضاع مجتمعه وأفكاره الإصلاحية.

أهم العناصر التي جعلت العمل يتجاوز المقامة التقليدية ويقترب من الفن الروائي الحديث:

- ✓ **وحدة الشخصيات الرئيسية:** بخلاف المقامات الكلاسيكية التي تعتمد على تعدد الشخصيات العابرة في كل مقام، نلاحظ في هذا العمل استمرار الشخصيتين المركزيتين (عيسى بن هشام والباشا)، مما يُضفي على النص تماسكًا سرديًا يُشبه البناء الروائي.
- ✓ **تطور الأحداث:** ينتقل البطلان من موقف إلى آخر، ومن مشهد إلى آخر، في تسلسل يخلق انطباعًا بوجود خط درامي متصل، على الرغم من الطبيعة المشهدية التي تحافظ على روح المقامة.

- ✓ التعليق الاجتماعي والنقدي: يحتفظ النص بروح السخرية والتركيز على مفارقات الحياة اليومية، لكنه يستخدم ذلك كأداة لنقد الأحوال السياسية، والتعليم، والقضاء، والأخلاق العامة، وهو ما يجعل من العمل أكثر من مجرد تسلية لغوية، بل وسيلة من وسائل التوعية.
- ✓ توالي الفصول كوحدة سردية متكاملة: رغم أن كل فصل يحمل موقفًا مستقلًا، إلا أن جميع الفصول ترتبط برؤية فكرية واحدة، ما يجعل النص أقرب إلى الرواية ذات الفكرة المحورية منه إلى المقامة التي تنتهي بانتهاء الموقف.

2. العمل كنص هجيني:

يمكن اعتبار "حديث عيسى بن هشام" نموذجًا هجينيًا (Hybrid) في الأدب العربي الحديث؛ فهو يجمع بين عناصر من المقامة التراثية، والمقالة الصحفية، والحكاية، والنقد الاجتماعي، ويتجه نحو الفن الروائي الناشئ، هذه الهجنة ليست ضعفًا، بل تشكّل أحد مظاهر التحول الأدبي في مطلع القرن العشرين، حين بدأ الكتّاب العرب في البحث عن أشكال تعبيرية تجمع بين الجماليات التقليدية وحاجات العصر الحديث.

فالعمل من جهة يُحافظ على الطابع البلاغي والأدبي الموروث، ومن جهة أخرى ينفتح على تقنيات السرد الحديث، مثل رسم الشخصيات، والتتابع الزمني، والتعليق الاجتماعي، مما يجعله علامة على الانتقال من أدب الوعظ والتقليد إلى أدب الوعي والنقد.

3. الوظيفة الفكرية للنص:

ما يُميز هذا العمل ليس فقط شكله الفني، بل وظيفته الفكرية، فهو يُمثل وثيقة أدبية تعبّر عن رؤية إصلاحية تنويرية، من خلال نقد الواقع المتردي، والسخرية من المظاهر الزائفة، والدعوة إلى التقدم والتحرر من الجهل والاستبداد، وقد استخدم المويلحي شخصية الباشا – العائد من الموت – كشاهد حي على التحولات التي طرأت على المجتمع، وهو بذلك يُمارس نوعًا من الصدمة السردية لتسليط الضوء على التناقضات والفجوات بين الماضي والحاضر.

إذن، فإن "حديث عيسى بن هشام" ليس مجرد عمل أدبي يستلهم التراث، بل هو نص يعبر عن مرحلة انتقالية في الأدب العربي، يتشابك فيها القديم مع الجديد، وتتقاطع فيها الأشكال التقليدية مع طموحات الكتاب في تطوير لغة التعبير النقدي والاجتماعي، ولذلك يمكن اعتباره بذرة أولى في تطور الرواية العربية، وواحدًا من النصوص التي مهدت الطريق للأدب الحديث بمضامينه وأساليبه الجديدة.

4. الأسلوب واللغة:

يتّسم أسلوب محمد المويلحي بجماليات لغوية واضحة، تجمع بين بلاغة المقامة وروح السرد الحديث، فهو كاتب بارع في التلاعب بالألفاظ، ويمتلك قدرة عالية على استخدام الأساليب البلاغية، مثل السجع، والازدواج، والجناس، ولكن دون الوقوع في التعقيد أو الإغراب، إذ تبقى لغته سلسلة ومفهومة، وهو ما يُميز عمله عن بعض المقامات القديمة التي غلب عليها الزخرف اللفظي على حساب المعنى.

1. المزج بين الفصحى والعامية: يوظف المويلحي اللغة التراثية العالية في السرد والوصف، مستلهمًا أسلوب الكتّاب القدامى، لكنه لا يتردد في إدخال تعابير من العامية المصرية عند الحاجة، خصوصًا في الحوارات اليومية بين الشخصيات، مما يُضفي على النص واقعية وحيوية، ويُقرّبه من القارئ المعاصر له. هذا المزج يُظهر وعي الكاتب بضرورة تقريب الأدب من نبض الحياة، دون التخلي عن قيمة اللغة العربية الفصحى.

2. التهكم والسخرية: من أبرز سمات أسلوب المويلحي استخدامه التهكم والسخرية الراقية كأدوات نقد اجتماعي وسياسي، فهو لا يُهاجم الواقع مباشرة، بل يعرضه من خلال مفارقات تُبرز التناقض بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وتظهر هذه السخرية في:

- المفاجأة التي يُبديها الباشا تجاه مظاهر التغير الزائفة.
- الحوارات التي تُظهر الجهل والتناقض لدى بعض الشخصيات.
- الوصف الساخر للمؤسسات كالمحاكم، والمدارس، والمجالس.

السخرية هنا ليست لمجرد الإضحاك، بل هي سخرية هادفة، تكشف الخلل وتدفع القارئ للتفكير، مع الحفاظ على الوقار والبعد الأخلاقي للنص.

3. التوازن بين الطابع الأدبي والبعد الفكري: يحافظ المويلحي على توازن دقيق بين جمالية الأسلوب وعمق المضمون، فالنص لا يغرق في التزويق البلاغي إلى درجة الإبهام، كما أنه لا يتحول إلى خطاب مباشر جاف، بل يظل الأدب لديه وسيلة للتعبير عن الوعي، ومجالًا لممارسة النقد الإصلاحي بأسلوب جذاب وذكي.

4. التأثر بالتراث دون الخضوع له: رغم استلهامه لأسلوب المقامة، فإن المويلحي يُجدد في البناء، ويُطوّع اللغة لتخدم غايته، فلا يتقيد بالمأثور على حساب المعنى، بل يستخدم الأسلوب القديم كوسيلة لطرح قضايا جديدة، مثل أزمة التعليم، والفساد، وتدهور القيم، وهذا ما يُبرز حداثة روحه رغم تقليدية الشكل.

إذن أسلوب محمد المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" يُمثّل جسرًا فنيًا بين بلاغة الماضي وواقعية الحاضر، فقد استطاع أن يُقدّم عملاً لغويًا راقيًا، يجمع بين جمال البيان، وسخرية النقد، وصدق الفكرة، مما يجعل من لغته وسيلة فنية وفكرية في آنٍ واحد، تُعبّر عن مرحلة التحول التي كان يمر بها الأدب العربي والمجتمع المصري في زمنه.

ثالثًا: المضمون الاجتماعي والسياسي

1. تصوير المجتمع المصري: يقدّم محمد المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" صورة حية وواسعة للمجتمع المصري في نهاية القرن التاسع عشر، في ظل الاحتلال البريطاني، وانحسار سلطة الدولة العثمانية، وتصاعد الدعوات للإصلاح والنهضة، هذه الصورة تأتي عبر رحلة تخيّلية ساخرة، ينهض فيها الباشا من قبره بعد موته، ويصحبه عيسى بن هشام في جولة طويلة عبر القاهرة، ليُريه ما طرأ على البلاد من تحولات.

- **رحلة داخل المجتمع:** هذه الرحلة تُشكّل إطارًا سرديًا يسمح للكاتب بتناول مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، من خلال مشاهد مرسومة بعناية، تحمل في طيّاتها نقدًا لاذعًا وسخرية ذكية، ومن أبرز القضايا التي يُسلّط عليها الضوء:

- **المحاكم والعدالة:** يتجلى الاختلاط بين القديم والحديث في مشاهد المحكمة، حيث يُلاحظ الباشا الفوضى في الإجراءات، وتضارب القوانين، وسوء الإدارة، فالمحاكم التي من المفترض أن تُحقق العدالة، تحوّلت إلى مسارح للبيروقراطية والظلم، بين قضاة غير مؤهلين، ومحامين متكلفين، وقوانين لا تُفهم، يهدف المويلحي هنا إلى نقد نظام العدالة المختل، وإبراز الحاجة إلى إصلاح جذري يقوم على العدالة الحقيقية، لا مجرد المظاهر الشكلية.
- **المدارس والتعليم:** في زيارتهما لإحدى المدارس الحديثة، يُظهر الكاتب كيف أن التعليم أصبح قائمًا على الحفظ والتلقين، لا على الفهم والنقد، وأن المعلمين في الغالب غير مؤهلين، والمناهج لا تتناسب مع حاجات العصر، ينتقد المويلحي هنا فشل المشروع التعليمي في النهوض بالمجتمع، ويرى أن التعليم – رغم تحديث مظاهره – ظل جوهريًا تقليديًا، يخدم السلطة ولا يُحرر العقول.
- **البيروقراطية والتفاوت الطبقي:** من خلال مشاهد الدواوين والدوائر الحكومية، يُبرز العمل فساد الجهاز الإداري، وانتشار المحسوبية والرشوة، والركون إلى الألقاب والشكليات، حيث يظهر الموظفون أكثر حرصًا على الشكل من الجوهر، والناس منقسمين بين طبقة مستفيدة من الإدارة، وأغلبية مسحوقة، يُدين المويلحي هنا ما سماه بـ "الفساد الإداري الممنهج"، ويُشير إلى أن الاستبداد لا يُمارَس فقط من قبل الحاكم، بل أيضًا من خلال جهاز بيروقراطي فاسد ومتخلف.

- **الزواج والمرأة:** يتناول المويلحي عادات الزواج ونظرة المجتمع إلى المرأة، فيكشف عن الجمود الاجتماعي، وتقاليد الزواج القائمة على المظاهر والمصلحة، لا على التفاهم أو العقل، كما يعرض تناقض المجتمع بين الدعوة لتحرير المرأة من جهة، واحتقار دورها الاجتماعي من جهة أخرى، يُقدّم المويلحي رؤية نقدية تُبرز الحاجة إلى تغيير المفاهيم حول المرأة والأسرة، لكنه يظل في حدود ما يسمح به الخطاب الإصلاحي في زمانه، دون تبنّي دعوات تحررية راديكالية.
- **التغريب وفقدان الهوية:** من أكثر مظاهر النقد حضورًا في العمل هو انتشار المظاهر الغربية، من اللباس إلى اللغة والعادات، حيث يحاول بعض أفراد المجتمع تقليد الأوروبيين بشكل سطحي، دون فهم حقيقي للحداثة، فيُظهر الكاتب كيف أن "التمدّن المصطنع" طغى على الأصالة، وأنتج شخصيات ممسوخة، تابعة شكليًا للغرب، لكنها غارقة في التخلف الداخلي، يرفض المويلحي التغريب الأجوف، ويدعو إلى التحديث الواعي، الذي لا يُلغي الهوية الثقافية، بل يُعزّزها من خلال التفاعل النقدي مع العصر.

الرؤية النقدية للمجتمع:

من خلال كل هذه المشاهد، لا يقدّم المويلحي مجرد عرض ساخر، بل يُمارس نقدًا اجتماعيًا ذا بعد إصلاحي، فهو لا يسخر من الشعب المصري، بل من الأوضاع التي أوصلته إلى ما هو عليه، ويُحمّل المسؤولية لكل من:

- السلطات السياسية المستبدة والفاسدة.
- المثقفين المتواطئين أو العاجزين.
- الناس الذين استسلموا للجهل والعادات الفاسدة.

الهدف من هذا التصوير ليس بث اليأس، بل الدعوة إلى يقظة جماعية تنهض بالأمة من خلال الوعي، والتعليم، والحرية، والإصلاح الحقيقي.

في "حديث عيسى بن هشام"، لا يُقدّم المويلحي مجرد أدب سردي، بل يُنجز خريطة اجتماعية دقيقة لمصر في عصره، من خلال أسلوب أدبي راقٍ، ولغة ساخرة، ورؤية إصلاحية واضحة، وبذلك يتحوّل النص إلى وثيقة أدبية فكرية تُضيء ملامح المجتمع المصري، وتحفّز القارئ على التفكير، لا في تفاصيل الحكاية فقط، بل في واقع أمّته ومصيرها.

2. نقد الاستعمار والاستبداد: لا يقتصر العمل الأدبي "حديث عيسى بن هشام" على رصد مظاهر الحياة الاجتماعية أو نقد التقاليد، بل يتجاوز ذلك إلى تناول القضايا الكبرى في الواقع المصري آنذاك، وعلى

رأسها الاستعمار البريطاني والاستبداد الداخلي، وهما وجهان لمأساة واحدة: غياب الحرية وضياع الكرامة الوطنية.

- **الاستعمار البريطاني – نقد غير مباشر بلغة الرمز:** رغم أن محمد المويلحي لم يُهاجم الاحتلال البريطاني بشكل مباشر، بسبب القيود الرقابية في ذلك الوقت، فإنه اعتمد على الرمزية والتلميح الذكي لنقل رسالته، مثل قوله:

– **الحاكم المتغطرس** الذي يظهر في بعض المشاهد، ويمثل السلطة الأجنبية المتعالية على المصريين.

– **الجهاز الإداري الفاسد** الذي يخدم مصالح المحتل، ويعمل على تثبيت سلطته من خلال التخويف والتهميش لا التنمية.

– استخدام مصطلحات تشير إلى **الخضوع والخنوع** أمام الأجانب، مع مزيج من السخرية والمرارة.

بهذه الرمزية، يُظهر المويلحي أن الاحتلال لم يكن قوة عسكرية فقط، بل منظومة تستند إلى شبكة من العملاء والجهلة والمستفيدين، داخل مؤسسات الدولة نفسها.

- **الاستبداد الداخلي – الفساد من الداخل:** يرى المويلحي أن الاستعمار ما كان له أن ينجح لولا وجود استبداد داخلي مهّد له الطريق، ويصوّر هذا من خلال:

– الباشاوات والموظفين الكبار، الذين يعيشون في أبراج عاجية، بعيدًا عن هموم الشعب، ويتعاملون بفوقية وجهل.

– رجال الدين التقليديين، الذين تحوّلوا إلى أبواق للسلطة، يباركون الظلم باسم الدين، ويُشرعون الاستسلام والسكوت.

– الجماهير الغافلة التي استسلمت للتقاليد، ورضيت بالتبعية، وفقدت حسّ المقاومة.

بهذا الخطاب، يُعيد المويلحي ترتيب أولويات النقد: فالتحرر من الاستعمار لا يمكن أن يتحقق من دون إصلاح داخلي حقيقي يواجه الاستبداد والجهل والتخلف.

- **تكامل في الرؤية الإصلاحية – على خطى الأفغاني وعبده:** يتضح من خطاب المويلحي أنه لا يفصل بين الاستعمار والاستبداد، بل يراهما متلازمين، وهو بذلك يلتقي مع فكر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، الذين أكدا أن، الاستبداد السياسي يُنتج شعبًا ضعيفًا، لا يستطيع مقاومة الاحتلال، وإصلاح الداخل شرط أساسي للتحرر من الخارج، والنهضة لا تقوم إلا على أساس

العقل، والتعليم، والحرية، ولذا، فإن المويلحي لا يكتفي بالسخرية أو عرض المشكلات، بل يحمل رؤيته الفكرية الواضحة التي تدعو إلى إصلاح شامل يبدأ من الذات، لا من الخارج.

من خلال توظيف الرمز الأدبي، والمفارقة الساخرة، والبنية الحوارية، يقدّم محمد المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" خطابًا نقديًا مزدوجًا يهاجم فيه الاستعمار البريطاني بوصفه قهرًا خارجيًا، والاستبداد المحلي بوصفه القاعدة التي يستند إليها الاستعمار، وهذا ما يجعل العمل ليس فقط وثيقة أدبية، بل أيضًا وثيقة فكرية مقاومة، تتبنى مشروعًا إصلاحيًا متكاملًا يهدف إلى تحرير العقل والمجتمع معًا.

رابعًا: "حديث عيسى بن هشام" وبدايات الرواية العربية

يحتلّ عمل "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي موقعًا فريدًا في مسار تشكُّل الرواية العربية الحديثة، فعلى الرغم من أن النص لا يستوفي كل الخصائص الفنية للرواية بالمعايير الحديثة، إلا أنه يُعدّ من أهم النصوص التأسيسية التي مهّدت الطريق لظهور الرواية الاجتماعية والفكرية في الأدب العربي الحديث.

- **ملامح الريادة السردية:** يمكن اعتبار "حديث عيسى بن هشام" نصًا انتقاليًا بين الأساليب التراثية (كالمقامة) والأساليب الحديثة (كالرواية الواقعية)، وتبرز ريادة العمل في عدة جوانب:

1. دمج السرد بالحوار الفلسفي والاجتماعي: بعكس العمل المقامة التقليدية التي تركز على الحيلة اللغوية أو المغامرة الطريفة، ويعتمد هذا النص أيضا على سرد منتظم تتخلله حوارات فكرية معمقة بين عيسى بن هشام والباشا، هذه الحوارات ليست فقط لإضفاء الحيوية، بل هي وسيلة لتحليل المجتمع، ومناقشة قضاياه، وتوجيه رسائل فكرية للقارئ.

2. نص سردي طويل متماسك: يتسم العمل بطول نسبي، مقارنة بالنصوص التي سبقته، كما أنه يحافظ على وحدة الشخصيات وتسلسل الأحداث، بعكس المقامات التي غالبًا ما تكون مستقلة عن بعضها، فالباشا وعيسى بن هشام يظهران طوال الفصول، وتدور حولهما الأحداث، مما يخلق نوعًا من البناء القصصي المتماسك، وإن لم يكن رواية كاملة بمعناها الفني الحديث.

3. الوظيفة المزدوجة: النقد وبناء الوعي: يتجاوز النص التسلية أو الزخرفة البلاغية، ليقوم بوظيفتين مركزيتين، نقد الواقع الاجتماعي والسياسي والديني، من خلال رصد مفارقات الحياة المصرية في ظل الاحتلال، بناء وعي جماعي عبر طرح قضايا النهضة، والإصلاح، والهوية، وهي سمات نراها لاحقًا في روايات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وغيرهما.

4. التخييل كأداة فنية للتعبير الواقعي: يُعد استخدام الخيال الرمزي (كرحلة الباشا بعد عودته من الموت) أداة سردية ذكية مكّنت المويلحي من طرح قضايا حساسة بطريقة غير مباشرة، وهو ما يمنحه بعدًا فنيًا يُقرّبه من الرواية الرمزية أو الفلسفية في أشكالها المبكرة.

مقارنة مع نصوص أخرى:

– **"زينب" لمحمد حسين هيكل 1914:** يُنظر إلى زينب باعتبارها أول رواية فنية باللغة العربية، لكنها تركز على الجانب العاطفي والرومانسي، وتستخدم اليوميات كأسلوب للسرد، دون الاندماج العميق في القضايا الفكرية أو السياسية، بالمقابل، حديث عيسى بن هشام يُمثل نصًا أكثر فكرية وتحليلًا، يُخاطب عقل القارئ بقدر ما يُحاكي وجدانه.

– **مقالات رفاعة الطهطاوي:** يشترك الطهطاوي مع المويلحي في الهم التنويري، لكن نصوص الطهطاوي تتخذ شكل المقال التقريري أو الرحلة، ولا تنتمي إلى جنس السرد القصصي بالمعنى الدقيق، أما المويلحي، فقد استطاع أن يُلبس الأفكار ثوب الحكاية، ويُضفي عليها جاذبية أدبية وسردية.

رغم أن "حديث عيسى بن هشام" لا يستكمل كل ملامح الرواية الفنية، فإنه يمثل منعطفًا مهمًا في تاريخ السرد العربي الحديث، فهو نص هجيني يجمع بين المقامة والحكاية والرواية، وخطوة جريئة نحو تحويل الأدب إلى أداة وعي اجتماعي وفكري، وعمل مبكر في بناء شخصية عربية مثقفة، تتأمل واقعها وتسعى لتغييره، ولذلك، يُمكن اعتباره بحق من أبرز اللبنات في صرح الرواية العربية الحديثة، بما مهّده من تجربة سردية ووعي نقدي سيجد صداه لاحقًا في تجارب أكثر نضجًا.

الخاتمة:

إن حديث عيسى بن هشام ليس مجرد نص أدبي ينتمي إلى لحظة تاريخية محددة، بل هو عملٌ تأسيسي يُمثّل حلقة الوصل بين أدب التراث وملامح السرد العربي الحديث، فقد استطاع محمد المويلحي، من خلال مزجه بين شكل المقامة الكلاسيكي وبين تقنيات السرد القصصي، أن يُنتج نصًا أدبيًا جديدًا في روحه، قديمًا في شكله، لكنه متجاوز لحدودهما معًا، لقد اختبر حدود اللغة، وبنى عوالم رمزية، وأدخل التخييل في صلب النقد الاجتماعي والسياسي، وهو ما جعله يُقارب فكرة الرواية من بوابة المقامة.

أهمية هذا العمل لا تكمن فقط في كونه من النصوص الأولى التي استثمرت التخييل الأدبي لأغراض فكرية وإصلاحية، بل أيضًا في طريقة تشكيله للوعي، عبر استخدام السخرية والرمز والأسلوب الحواري، فقد استطاع المويلحي أن يُعبّر عن قلق المرحلة، ويفضح مظاهر الاحتلال والاستبداد والتغريب

والفساد الأخلاقي والاجتماعي، دون أن يقع في الخطابة المباشرة أو الوعظ التقليدي، بل عبر بنية أدبية ذكية، تعكس نضجًا فكريًا وجرأة تعبيرية متقدمة على زمانها.

وعلى مستوى الشكل، فإن حديث عيسى بن هشام يُعدّ من المحاولات السردية المبكرة التي اقتربت من شكل الرواية، من خلال تماسك الشخصيات، وتسلسل الأحداث، ووحدة الفكرة العامة، واستعمال تقنيات الحوار والسرد والتحليل، مما يجعل العمل يتجاوز التصنيفات التقليدية، ويقف في منطقة هجينة بين المقامة، والرواية، والمقال الاجتماعي.

أما من حيث الوظيفة، فقد أدرك المويلحي — على خطى الأفغاني وعبده — أن الأدب لا يمكن أن يكون ترفًا لغويًا، أو محاكاة فارغة للتراث، بل يجب أن يكون أداة للتنوير والإصلاح، وسلاحًا في وجه التخلف والاستعمار معًا، وهو ما يظهر جليًا في نقده المزدوج لكل من الاحتلال البريطاني وأعوانه من الداخل، ممن كرّسوا الجهل والاستبداد باسم الدين أو العادة أو الوظيفة.

ولذلك، فإن حديث عيسى بن هشام يظل نصًا مركزيًا لفهم تحولات العقل العربي الحديث في بدايات القرن العشرين، ويُعدّ من الأعمال التي مهّدت الطريق للرواية العربية بوصفها فنًا ملتزمًا، يتفاعل مع المجتمع، ويُنتج وعيًا نقديًا، ويُعطي للخيال دورًا في تشكيل الواقع.

وإذا كان نجيب محفوظ، وهيكل، والمازني، قد ساهموا لاحقًا في ترسيخ قواعد الرواية العربية، فإن محمد المويلحي كان من أوائل الذين مهدوا الطريق لذلك، بمعمار لغوي تقليدي لكن بروح حداثية فكرية متجاوزة، إنه أحد أبرز من فهموا أن السرد ليس للتسلية أو التجميل البلاغي، بل هو أداة لفهم الذات، وتفكيك الواقع، وصياغة المستقبل.